

رُوحُ الْمَرْحِ

هي الملقب الأول في زحمة الكوارث

يجتاز الناس في هذه الأيام مرحلة من انشدائد والآلام قل أن يكون لها نظير، وتشارك في الضغط على أعصابهم وقوة احتمالهم عوامل شتى ، في مقدمتها الغارات الجوية ، والأزمات الاقتصادية ، وفقد الأهل والأبناء ، والقلق الدائم مما يمكنه الغيب الخيف .

وهي محنة للبشر تحتاج إلى أعصاب قوية ونفوس متينة ، وإلا انهارت وتحطمت تحت مطارق الأحداث التي تضغط عليها الليل والنهار . وروح المرح والدطابة في مقدمة ما يمد الأعصاب بالقوة والنفوس بالثقة ، ويهون عليها وقع المخاوف ، بل يجعل هذه المخاوف مادة للتفككة فيخف ضغطها وتذهب روعتهم ، وتستعد النفوس لاحتمالها .

وأماننا مثل حى لما تصنعه هذه الروح : الأعصاب من تجديدها وتقويتها في شعوب الأمراطورية البريطانية . فالعارات الجوية على لندن والمدن الإنجليزية الأخرى ، وأهوال البحار التي تتعرض لها سفنهم وبجارتهم ، والحياة في بيئات لم ياقوها من قبل ومنها جهنم القيظ في الصحراء وزمهرير الضميق في الشمال ، وأنبيار الشعوب أمامهم شعباً إثر شعب ، كل هذا لم ينل من قوتهم المعنوية ، ولم يقدّم النبات والاطمشان المشهورين عنهم ، لأن روح المرح والدعابة تتخلل نفوسهم ، وتروح عن أعصابهم وتخفف من ضغط الأحداث عليهم ، وتموّن وقعها على قلوبهم .

وهام أولاء بروحون بيننا ويحيون ضاحكين مستبشرين ، لا تفارقهم دعاياتهم ومرحهم وضحكاتهم الخارجة من أعماق نفوسهم ، لا يعزعهم الخطر ، ولا يزعجهم الهول ، بل يملكون أعصابهم لمواجهة أفضل ما نشأوا عليه من المرح والدعابة .

وهم يعيشون كذلك قريباً منا في طبرق طوال الصيف لا تكاد انغرات الجوية تنقطع عنهم ولكنهم مع ذلك هم هم في مرحهم واستبشارهم ، اللذين هما سر صبرهم واحتمالهم .

ونحن في مصر أحوج ما نكون إلى سريان تلك الروح في أوساطنا ، نتحصننا من الفزع الذي يصيبنا في هذه الأيام ، كلما دوت صفارات الإنذار ، وللترويح عن قلوبنا من زحمة الحوادث ، ومن القلق الذي يساورنا على الحاضر والمستقبل .

ولو استطعنا أن نلّون الحوادث بلون فكهم ، وأن نتخذ منها مادة للتفكّية لكانت علينا ومرت بنا دون أن يتلف أعصاب الكشّوبين منا ، أولئك الذين نالهم من الأذى ما نالهم من جراء الغارات القليلة والأخطار الخفيفة التي تعرّضت لها مصر في هذه الأيام .

وربما أخطأ البعض في مظاهر الاستهتار الجوفاء البادية في الوسط المصري ، فظنّها مرحا أصيلا كالذي تدعو إليه ، والحقيقة غير ذلك ، فالحياة المصرية تخيم عليها الكتابة ويطنها الغم والحزن يطابع عميق ، على الرغم من مظاهر الاستهتار البادية والتكتم المصرية المشهورة .

ويعتد هذا الاستهتار الظاهري هو الأعصاب المنحلة لا الأعصاب القوية ، وآية ذلك أن مظاهره لا تبدو إلا في الجماعات العابثة ، فإذا تفرقت وثاب كل منها إلى نفسه ، عاد إلى الاستكانة والكتابة والانكماش ، ولم يحتفظ بصورة المرح الثابت في جميع الأحوال .

ولهذه الكتابة أسبابها الواضحة في مصر . وفي مقدمتها الفقر الأزلي الذي يضغط على الغالبية الغالبة والمرضى الناشئ من سوء التغذية والطفيليات ، وهو يهدد الأجسام وينهك الأعصاب مع حليفه الفقر الكثيب ، ولا يدع للنفس مجالاً لأن تنشط أو تهش لشيء من الأشياء .

ولا نستطيع أن ننسى عاملاً جديداً من عوامل المم والكتابة ، وهو محطة الإذاعة التي تنشر في كل بيت وناد ومقهى أصوات الأسمى والتجنن من حناجر المطربين والمطربات ، فإذا الملكة كلها محزنة دائماً بالليل والنهار ، ومأمم لا ينفص ولا تنى أصوات الناخمين والناخحات تردد في أرجائه كل أن !

وكذلك لا نستطيع أن ننسى أن جو البيوت المصرية لا يساعد على خلق روح المرح الصحيحة ، فالبيوت القديمة كان يسودها الكبت والوقار المصطنع الذي يباعد بين أفراد الأسرة ، والبيوت الجديدة بيوت عابثة مستهترة مفككة ، لا تربط بينها صلة ولا يجمع بينها رابط ، لكل فرد فيها شأنه الخاص ومواعيده وزياراته ، أما الأطفال ففى أيدي الخدم أو على قارعة الطريق مع رفاق الطريق .

ومن شأن الكتابة أن تحطم الأعصاب ، وتقلل من استعدادها للقاومة ، فتتأثر أمام أول صدمة ، ولا تجد لها وصيلاً من الصحة وتعوّد الاحتمل يقبها شر الاصطدام .

من واجبنا إذن أن نعنى بتقوية روح المرح في نفوس الشعب بإدخال السرور على قلوب الجميع ، والاجتهاد في إشاعة روح المرح والبهجة في كل مكان .

ففى المنزل ينبغى أن يعلم الآباء والأمهات أن سعادة أطفالهم هى الواجب الأول عليهم والميراث الثمين الذى يورثونهم ، فيجب أن ينصرف تفكيرهم الى إدخال السرور دائماً على نفوسهم الصغيرة البريئة بالتفكير فى الألعاب ولأحاديث التى تملأ قلوبهم بالبهجة وتنشطهم للروح والحركة. ويجب أن ينحفوا عن أعين الأطفال كل مظاهر الغم والكآبة، وكل المنزعات الصاخبة التى تملأ إحساسهم بالضيق والكدر وتتلغف أعصابهم وهم بعد فى دور الطفولة .

وفى المدرسة يجب أن يكون النشاط الحر هو أساس التعليم ، وأن تتغير العقلية التعليمية التى تجعل تحصيل المعلومات مقدماً على الحياة ذاتها ، وبتعبير آخر يجب أن يعيش الأطفال وهم يتعلمون وأن تراعى غرائزهم وطفولتهم ، فلا تكبت فوق المقاعد وفى حجرات الدراسة باسم النظام !

وللرة المائة نادى بإيقاد الشعب من لعنة الغناء الحزين التى تصبها عليه محطة الإذاعة بالليل والنهار، ولا ذنب له سوى اقتناؤه أجهزة الراديو وسداد الضريبة المطلوبة فى مواعيدها المحددة . وليس هذا ولا ذلك جريرة يسام من أجلها هذا العذاب المقيت !

نحن فى حاجة الى أعصاب هذه الأمة فى النوازل والملمات التى تعصف بها فى هذه الأيام . وهى أجدى من كل وسائل الوقاية ، وهى الملجأ الأول من الغارات وغير الغارات واذا وحتت هذه الأعصاب تحت مطارق الأهوال فلن تجدى الخبايا ولن تنفع وسائل الإنقاذ .

ولست أدري غرام السادة والسيدات من المطربين والمطربات بهذا النواح الذابل الحزين ، الذى يشبع فى موسيقاهم وأغانيم ، حتى فى الأناشيد الوطنية التى خرجت من حناجرهم إما أصواتاً نائحة ، وإما همهمات مائعة ؟

وإذا شد مطرب أو مطربة ، فنفض فى لأغانى روحاً قوية ، وبعد بها عن الحزن المائع والطرب المتخلع ، كان هذا نذيراً بندرة إذاعته ، إن لم يكن بإقصائه نهائياً عن فردوس الإذاعة وطرده من رحمة المحطة .

إن البيت والمدرسة والمحطة تشترك جميعاً فى إشاعة الكآبة والغم فى النفوس ، ومن الرحمة بهذا الشعب ، أن تقتصد فى إلقاء هذه الأتقال على كاهله فى وقت تنقله هموم الحرب بأفدح الأعباء .

ورحمك اللهم — خاصة — من هذا النواح الذى يدعونه بالغناء .